العرب
الأحد 2019/07/28
السنة 42 العدد 11421

مشاهدات زائر عربي في ماليزيا

كوالالمبور متشعبة وتخطف الأعين وتلبي جميع الأذواق

الزيـارة الميدانية إلى بلد ما تصحح ما يتعلق في الأذهان من معلومات قد يكون بعضها مغلوطا والبعض الآخر صحيحا، فهي تجعل السـائح يرسم في مخيلته شريطا جديدا وحقيقيا عن البلد الذي يزور شوارعه بمحلاتها ومطاعمها والأماكن الطبيعية التي يمتاز بها، فلا أحد يستطيع أن يعبر عن سحر بلد ما ولكن العين توثقه بدقة.

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

كوالالمبـور - لـم أفكر يوما في قضاء إجـازة صيفية فـي بلد آسـيوي، فمصر مليئة بالشـواطئ والمنتجعـات المريحة، وإن كان لا بـد، فالاتجاه إلى بلد عربي أو أوروبـي أكثر إغراء وجـدوى. وبعد فترة من التلكـؤ والرفـض والتأجيل رضخت للذهاب إلى ماليزيا شرقا.

حصلـت على معلومـات دقيقة تجمع بين مقومـات الطبيعة الخلابـة والنظام والنظافة، وبين الحوافز المغرية بالنسـبة لعدم وجود تأشيرة دخول وتكاليف السفر والإقامة الزهيدة، كأن ماليزيا اسـتطلعت هواجسي لتأكيد صواب الاختيار.

كنـت ممانعا لهـذه الزيارة لأسـباب سياسـية، حتى اطلعت علـى تصريحات لمسـؤولين تشـير إلـى حـدوث تغير في التعاطـف السـابق لبعـض الحـركات الإسـلامية، عقـب ضغوط مورسـت على كوالالمبور من دول مجاورة، وارتفاع حدة التهديدات الأمنية التي تمثلها الجماعات المتشـددة وعـدم اسـتبعاد قيـام تنظيم داعـش الإرهابـي باختـراق مؤسسـات مهمـة فـي ماليزيا، إذا تمـادت الحكومة في التسـهيلات المقدمة لقيادات إسلامية بارزة، ومنها سـوف تنتشـر في المنطقة، وتنقل إليها توترات وصراعات لم تعهدها من قبـل، وسـط موزاييك دينـي وعرقي معقد.

ذهبت إلـى ماليزيا من بـاب التعرف علـى عالم جديد. وحاولت تنفيذ تعليمات رئيـس تحرير "العـرب" بالتفـرغ تماما للإجازة مع الأسرة وعدم الانشغال بهموم العمل كي أعود أكثر نشـاطا، فلم أستطع، وكتبت انطباعات ومشـاهدات ربما تكون مفيـدة في التعرف على حجـم التحولات الجارية في هذا البلد البعيد.

> «اي سيتي» مكان يحتوي متحفا لأهم الشخصيات السياسية والفنية والرياضية والعلمية في العالم وتبدو حقيقية عن بعد

وصلـت إلى كوالالمبور فـي 20 يوليو الجـاري، وشـعرت وقتهـا بالانتقال من أجـواء الصيف الحـار في القاهـرة إلى شـتاء بلـد أوروبـي لا ترى فيه شـمس تقريبا، وقد لا ينقطع عنه المطر.

حركـة البشـر فـي الشـوارع توحي بدقـة روتينية ومعتـادة ونظام لا تخطئه عين، وحركة السـيارات تسير على وتيرة متناغمة ومبهرة لمن تعوّد على طريقة "من يمشـي صح خطأ"، في إشارة يستخدمها سـكان القاهرة كدليل على عدم الاعتراف بالنظـام العام في الشـوارع والاعتراض الضمني على قوانـين العقوبات الخاصة بالمرور وآدابه في مصر.

مـن الوهلـة الأولـى فـي العاصمـة كوالالمبور تشـعر بالارتياح وبأنها مدينة هادئـة وعريقـة، لأن المدن مثل البشـر قد تألفهـا أو تنفـر منها سـريعا. ولم تمح المباني الشـاهقة والأبراج المتراصة على جانبـي الطريـق والكثير مـن المرتفعات معالـم نظيرتهـا القديمـة. وإذا كانـت الأولى تمتاز بالجاذبية والأناقة والخيال، فالثانيـة لا تزال تحافظ على عبق التاريخ وما يحمله من مكونات حضارية يلمسـها الزائر مباشـرة في تناسـق الألوان التي تظهر فـي غالبيتهـا، والفضـاء المزدحم بأنـواع نـادرة مـن الأشـجار وجذورها المتمـددة فـوق الأرض وتحتهـا، وأعلى الجبال وفي أسفلها.

ترمـز الألـوان الخضـراء والـورود الزاهية التي تكسـو المرتفعات والوديان والشوارع إلى النظافة والصحة والعافية والتفاؤل والأمل، وتعكس شـيئا من الندم والحسرة والغضب عند من اعتادوا رؤية التفنن في تقطيع الأشجار وطغيان اللون الأصفر في بعض الدول العربية.

ونجحت ماليزيا فـي صناعة معجزة اقتصاديـة مبكـرا، لكنهـا لـم تسـتطع مواصلـة الصعـود لأسـباب سياسـية، بعضها يتعلق بمشكلات داخلية وعثرات واجهتهـا حكومـات مختلفـة، والبعض الآخر يتعلق بانتشـار الفساد بين الطبقة الحاكمة، ما أرخى بظلال سـلبية على بلد دخـل دوامة من الأزمات بـدلا من الحفاظ على القمة، بشـكل أخذت ملامحه تزحف على حال شـريحة كبيرة من الناس، باتت تترحم على زمن مضى وتشعر بالقلق من زمن آت.

الهبوط من القمة

مـن السـهولة أن تلمـس هـذا الملمح فـي تعليقات البعض من البسـطاء الذين فقدوا الثقة في سياسـات رئيس الوزراء الحالـي مهاتير محمد، وعبـروا عن عدم التفـاؤل بالولاية الجديـدة له، وبدأت في مايو من العـام الماضي، لأن مهاتير اليوم ليس هـو مهاتير الأمس الذي سـاهم في المعجزة الاقتصادية، وهو ما يكشف عمق التحديـات التي تحيط بالرجـل، ما كبله بواقع مرير، مرجح أن يفشـل في تغييره، فصورتـه الإيجابيـة التـي وضعتـه في مرتبة متقدمة في صف مـن بنوا ماليزيا الجديدة اهتزت كثيرا، ولم يفلح حتى الآن في العثور على أدوات ناجعة لتحصينها من التدهور.

فتّح الشعور بالإخفاق أو تراجع الأمل أعين شريحة كبيرة للتركيز على السياحة كمصـدر دخل حيوي في الدولة، مع تراكم المشكلات الاقتصادية القاسية، التي يمكن أن تزيـده ازدهـارا أيضـا، بحكـم اتقان طقوسـها، والموقع الجغرافي الآسـيوي المتميز، وتعدد الأماكن التي تخطف عقول وقلوب السـائحين من دول قريبة وبعيدة، والقدرة على تسويقها بنعومة.

أول شـيء يقابلـه الزائـر هو حديث يردده سـائق السيارة يبدأ بالتعرف عليه ثم يقدم له، إذا عـرف أنه غير ملم بمعالم ماليزيـا، حزمـة مـن الأوراق المصقولـة ليختار الأماكن التي يريدها، وهي متشعبة وتخطف الأعين وتلبي جميع الأذواق، من الاسترخاء والثقافة والحضارة إلى اللهو والمتعة والترفيه.

من يريد التأمل في الطبيعة وروعتها يذهـب إلى كهـوف باتـو (باتـو كايفز) وأخذت اسـمها من باتو سونغاي أو نهر باتو الذي يتدفق داخله، وهي أيضا اسـم لقرية مجاورة، ومن المزارات الهندوسـية الأكثر شـعبية خارج الهند، ومكرسة لإله الحرب الهندوسـي موروغـان، ويتصدر تمثاله الضخم الواجهة.

تسـتلزم رؤية الكهـوف الصعود من خلال سلّم بُني عام 1920 في حضن الجبل، ويبلـغ ارتفاعه 272 درجة، وبصحبة قرود تتناثر على السـلالم، ولا تتورع عن القفز حول مـن يصعـدون ويهبطـون وخطف متعلقاتهم الشخصية. وينصح العارفون ومـن قرأوا عن كهوف باتـو عدم حمل ما يغـري القرود والطيـور الموجودة بكثافة على اللعب مع البشر.

تنتهـي الرحلة إلى أعلـى بمجموعة من الكهـوف وأماكن صغيـرة للعبادات. ويقع في أسفلها مكان أكبر للعبادة مزين بأشـكال ورسـومات يتطلب دخوله خلع الأحذيـة احتراما وتقديسـا وخشـوعا. وحديقـة للطيـور وأخـرى للحيوانـات وشـلالات من المياه تزحـف ببطء، ملحقة بها بحيرة تطفو فيهـا أنواع مختلفة من الأسماك.

من يبحث عـن المرح عليه الذهاب إلى "بيـرد بـارك" أو "سـان واي لاغونز"، أو صعود بـرج كوالالمبور المعـروف بـ"كيو أل تاور"، ومشـاهدة معالـم العاصمة من على ارتفاع حوالي 300 متر، والمشي على سـطحه الزجاجي البديـع، ورؤية من هم يمشون أسفله.

ودخـل برجـا "بترونـاس التـوأم" الخريطـة السـياحية لأنهمـا الأعلى في كوالالمبـور، عـلاوة على الربـط أو الرمز الخفـي بينهمـا وبـين برجـي التجارة العالميين في نيويـورك واللذين كانا هدفا لهجمـات إرهابيـة فـي سـبتمبر 2001، كمـا يقدمـان عروضـا ممتعـة، وقريبان من منطقـة معروفة بمطاعمهـا المتعددة ومتاجرها المشجعة على الشراء.

تبعـد مرتفعات "جنتنغ هـاي لاندز" السـياحية عـن العاصمـة نحـو مئـة كيلومتـر، وتضم مشـاهد بديعـة، حيث تتسلق السـيارة جبالا شـاهقة بسهولة يبلـغ ارتفاعهـا 1740 متـرا، لأن الطريق ممهـد بسـهولة، علـى الرغم مـن كثرة تعرجاته ومنحنياته، ويفضي إلى سـوق تجارية مقسـمة إلى جزأين، أحدهما في الشـرق وبه محلات تبيع أشهر الماركات الأميركية والأوروبية بأسعار أقل وخارج المنافسة أو ما يعرف بـ"آوت لت"، والآخر في الغرب ويحوي سلسلة مطاعم وساحة كبيرة لألعاب الأطفال الترفيهية.

يتولى "سـكاي واي" التلفريك عملية التنقـل من الشـرق إلـى الغرب لمسـافة تصـل إلى نحو 3400 متـر، ومعروف أنه الأسرع في جنوب شـرق آسيا، في رحلة بين صعـود وهبوط والعكـس، تمكن من رؤية جبال عالية مليئة بالأشجار الوارفة مـن كل جانـب، كأن هنـاك مـن تعمدوا زراعتها وحسن رعايتها، وقامت الأمطار المتواصلـة معظم العـام بمدهـا بالمياه اللازمة، وهو ما سـاعد على تيسير مهمة سقياها.

كانت مفاجأة سارة عند زيارة مكان اسمه "اي سيتي" على مشارف كوالالمبور، ويحوي متحفا مبهرا لأهم الشخصيات السياسية والفنية والرياضية والعلمية في العالم وتبدو حقيقية عن بعد، على غرار متحف الشمع في لندن، وهو ما أتاح لي فرصة للوقوف بجوار الرئيس الأميركي دونالد ترامب والملكة إليزابيث والأميرة ديانا ومادونا وسيلفستر ستالوني، والجلوس أمام زعيم جنوب أفريقيا الراحل نيلسون مانديلا، وتخيلت أنه عاد للحياة وبدأت في محاورته، والكثير من الشخصيات الشهيرة التي يحلم كل صحافي باللقاء معها وجها لوجه، مثل المهاتما غاندي وبيل غيتس ومارك زوكربيرغ.

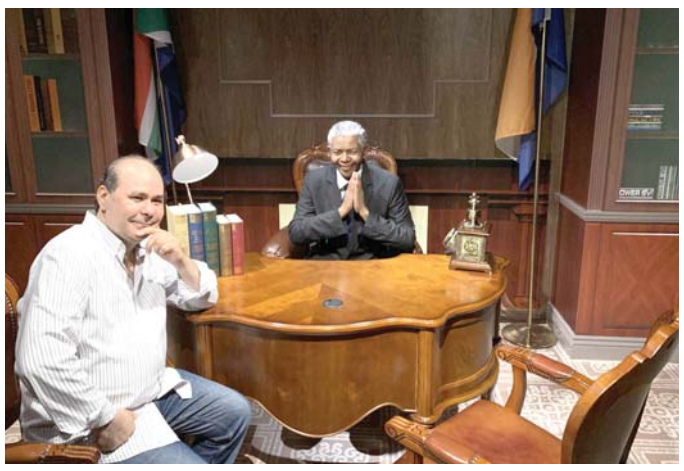

ماندیلا في ماليزيا

مشاهير من الشمع

> كهوف باتو، من المزارات الهندوسية الأكثر شعبية خارج الهند، ومكرسة لإله الحرب الهندوسي موروغان، ويتصدر تمثاله الواجهة

العرب قادمون

راودتني شكوك عندما سمعت أن ماليزيا أصبحت من الدول التي يرتادها عدد كبير من السائحين العرب، فهناك دول عديدة تمتاز بالشواطئ المطلة على البحار والمحيطات أكثر قربا منهـا، وثمـة دول تمتلك من المقومات الحضارية مـا يفوق كوالالمبور وغيرها من المدن الماليزية.

هـذا صحيح، لكـن الاحتـراف الذي يتعامل به المواطنون مع الأجانب عموما، يؤكد أن السـياحة من العناصر الحيوية في جسـد الاقتصاد المترنح في هذا البلد، ولا تقـل أهميـة عـن الصناعـة الثقيلة والخفيفة التي انتعشت منذ فترة وتجلت مظاهرهـا في أشـكال متنوعـة، وتقاوم التراجـع والتهاون فيما جرى تحقيقه من مكاسب بعد توطين عدد من الصناعات الغربية.

شـهد التركيـز علـى هذا الجانـب رواجـا لافتـا، لأنه أدى إلى تراجع ثمن الماركات العالمية في الأزيـاء والأحذية الشـهيرة، مقارنة بأسـعارها في الدول التي تستوردها. تجد المتاجر الكبيـرة منتشـرة ومزدحمـة، وربمـا لا يخلو شـارع كبير فـي كوالالمبور مـن أحدها أو أكثر، وهـي من بين طرق جذب مواطني الدول الآسيوية القريبة.

قد يكون هذا الملمح هامشيا لدى البعض، لكنه في النهاية يمثل دافعا إلى المزيد من الإنفاق المادي السلس، ويؤدي إلى رواج صناعات مكملة تتغذى عليها السياحة في أي بلد. وساعد وجود جاليات وجماعات من دول قريبة على تصاعد المد الآسيوي في ماليزيا، الأمر الذي تظهر معالمه في ملامح المارة وتعدد لغاتهم ولكناتهم، وبدأ يمثل ازعاجا لبعض الأحزاب السياسية.

تترك كلمة "ميليشيا" انطباعا سيئا لدى من تلقى أمامه بعد أن اشتهرت في دول مثل ليبيا واليمن وسوريا ولبنان والصومال والسودان، لأنها تعبر عن الكتائب المسلحة غير القانونية والخارجة عن الشرعية، وفي معظمها ترمز إلى ذوي الجذور الإسلامية المتطرفة.

سـمعت كلمة ميليشيا بلكنـة إنكليزية ضعيفة من السائق عبدالله محمد، وهو من الأغلبية المسـلمة التي تبلغ نسـبتها حوالي 60 بالمئـة، وتصورت أنه يتحدث عن حركات وعصابات متطرفة جديدة، مثل التي نعرفها في بعض الدول العربيـة، وأن داعـش وأعوانـه تمكنوا مـن الزحف على ماليزيا، لكن استرسـال الرجل فـي الكلام وإصـراره على النطق بكلمة ميليشـيا ثم يقـول هندية وصينية وإندونيسـية وسـريلانكية وفلبينيـة وهكذا، أدركت أنه لا يقصد كتائب مسلحة بل جاليات من هذه الدول تقطن في أماكن معينة، جلبت معها عاداتها وتقاليدها في المأكل والملبس.

كهف الخيال

تدفـق أعداد كبيـرة من أبنـاء الدول العربية ربما يؤدي إلى السير في ركب هذه الظاهرة خلال سـنوات قليلة، فقد لاحظت ذلك في الشوارع. وكانت براهينه واضحة في كثافة المطاعم والمقاهي ذات الأسـماء العربيـة، مثـل القمر وطاجين مـن لبنان وطربوش السـوري وحضرمـوت اليمني وأبوخالد الخليجي وفريد المصري، فضلا عـن حرص المطاعم ذات الجـذور الغربية مثـل ماكدونالـد وكنتاكـي وفرايدايـز وتشـيلس على كتابة عبـارة لحوم حلال باللغـة العربيـة، لتبديد المخـاوف التي تسـيطر على بعض المسـلمين عندما تطأ أقدامهم بلدا في الغرب أو الشرق، وجاءوا ومعهم ميراث خاطئ عن الآخر.

> مطاعم بأسماء عربية مثل القمر وطاجين من لبنان وطربوش السوري وحضرموت اليمني وأبوخالد الخليجي وفريد المصري

أصبحـت ماليزيـا مـن الـدول التي يتوجه إليها مواطنـو دول عربية كثيرة، بعـد تراجع الإقبـال على تركيا، بسـبب مشـاكلها السياسـية. وتـدرك حكومـة كوالالمبـور هـذا التغيـر، وتعمـل علـى تقديم المزيد من التسـهيلات التي تجعلها مقصـدا اسـتثماريا رئيسـيا لجانب من رؤوس الأمـوال العربية خلال السـنوات المقبلة، مسـتفيدة مـن التراجع الحاصل في المقاصد الاقتصادية المنافسة. وتعتزم التوسع في فتح آفاق واسعة أمام الفرص الواعدة، بما يسـاهم فـي تجاوز الأزمات التي تواجهها حاليا.

تشبه ماليزيا في تسامحها إندونيسيا المجـاورة لهـا، وهو ما لمسـته من خلال تعاملات المواطنين في البلدين، وقد تكون كوالالمبور أكثر انتعاشا ورواجا وصخبا مـن جاكرتا، ويشـتركان معا في الخروج سريعا من شرنقة الكسل والفشل والرغبة في تصحيح الأخطاء، وقطع شوط جيد في مجال الديمقراطية والحريات السياسية، غير أن إندونيسيا تتقدم بخطوات سريعة وماليزيـا بدأت مرحلة خطـرة من الترنح الاقتصادي.